

الأغراض الاجتماعية
في نهج البلاغة

تأليف
آية الله السيد محمد الأمين
نور محمد

مؤسسة البلاغ

المدخل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ارتأت لجنة - المهرجان الألفي لكتاب نهج البلاغة - إصدار ونشر كل بحث ودراسة تخصّ - نهج البلاغة - بمواضيعه المختلفة ، وأبوابه المتنوعة ، وعلومه المتشعبة التي لا نهاية لها ، وكان من بين المواضيع بحث صاحب أعيان الشيعة المؤرّخ المجاهد ، والمتتبع المثابر السيّد محسن الأمين العاملي (رضي الله تعالى عنه) - وهو القضايا الاجتماعية في نهج البلاغة - فعزمت اللجنة نشره ضمن سلسلة نشراته مع اعطاء ترجمة عن مؤلفه العظيم وتبيان آثاره ، وجهاده الفكري ، وقد اختارني لهذا الموضوع لظنّها الحسن بن مع تراحم أعماله الفكرية ، وتراكم مشاغلي الأدبية التي سلبت منّي الوقت كلّهُ . . بيد أن

كافة الحقوق محفوظة وسجّلت

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

طلب مؤسسة نهج البلاغة ، لا يردّ مهما كانت المشاغل
والمشاكل . . .

إن حياة السيّد الأمين تفتقر الى وضع مجلّدات
دراسات مسهبة ، ووقت طويل لأنّ حياته محفوفة
بالمخاطر والمناحي والميادين المترامية النابضة بألوان من
الحياة المتدفقة بنواحي شتّى ، وجوانب رحبة عريضة ،
فمن الصعب أن يتحمّل كاتب عبء الحديث عنه والتوفّر
عليه ، ولو كان من هؤلاء الرجال المحدودة حياتهم
وأعمالهم لهان الأمر .

نسبه ومولده :

السيّد محسن بن السيّد عبد الكريم بن السيّد علي بن
السيّد محمّد الأمين بن أبي الحسن موسى بن حيدر بن
أحمد الحسيني .

ولد عام ١٢٨٣ هـ في قرية (شقراء) من أعمال
مرجعيون ، بجبل عامل ونشأ وترعرع فيها وأكمل دراسة
المقدمات ودرج في بيت العلم والأدب والزعامة الدينية
فكانت طبيعة الإرث والبيئة والبيت والأسرة تحفّزه وتدفعه

الى ما يصبو إليه الناشئ الموهوب إذ أتى ولى وجهه
استقى النشاط والتوفّر العلمي من العلماء والأدباء ،
ولذلك جعلت الأسرة منه صورة للفضيلة فلم يكذب يخطو
الخطوة الأولى في حياته العلمية حتى دلّت على كفايته .

لقد استوفى حظّه العلمي من الثقافة في بلده ،
وأصبح لزاماً عليه أن يخطو خطوات واسعة وأشواطاً
بعيدة ، ويغذي ملكاته القوية ، وسليقته المطبوعة على
حسن الأداء فينتقل الى جامعة العلم ، وعاصمة الأدب
الكبرى : النجف الأشرف - فهاجر إليها سنة ١٣٠٨ هـ
ومكث فيها أعواماً وبدأ يلتزم نجمه في الأوساط
العلمية ، ويتسع إشراقه كلّما توسّع هو في دراسته ،
وتقدّم في مراحل حتى ارتاضت له الحياة العلمية على يد
فحول من أساتذة الفقه وعباقرة الأصول وأساطين الدين
وفطاحل الأدب أمثال : المحقق الخراساني ، وشيخ
الشرعية الإصفهاني ، والشيخ محمد طه نجف ، والحاج
آغا رضا الهمداني ، وغيرهم من أعلام الدين وأئمة
العلم .

العودة الى الشام :

ولما استوفى حظّه ، وبلغ المرتبة السامية والمرتبة الرفيعة من الفقاهة ، فغادر النجف الأشرف عام ١٣١٩ هـ وعاد الى الشام داعياً الى الحق والصراط المستقيم ، ومبشراً بالصدق والعلم . وأعانه الله وأمدّه بحوله ، وجال في ميادين المثابرة ، وصال عباب الجهاد ، بقوة وعزم وإرادة حيّة .

عاد إلى دمشق وبعودته ابتدأت فيها حياة جديدة ، ومناعة يانعة وفتوة مثمرة شأنها الشدّة والدعوة الى الدين والأخلاق ، وتهذيب النفوس والسير الى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواضع للعلماء ، وأخيراً دفع الأمة الى مهيع الحق والإسلام الصحيح ، المتمثل في منهاج ومكتب العترة الطاهرة خلفاء الرسول عليهم السلام .

لقد كانت لمحاضراته البليغة ، وخطبه الصريحة الواضحة ، وإرشاداته البارعة ، وتوجيهاته الصالحة ،

كبير الأثر في تحقيق رسالته المنشورة ، ودعوته الصادقة .

وأنشأ في دمشق المدرسة المحسنية للذكور ، ثمّ المدرسة اليوسفية للإناث ، بمساعدة أهل البرّ والإحسان ، وتأسيس مكتبة كبيرة حافلة وزاخرة بالمطبوعات والمخطوطات القيّمة ، والنفائس النادرة ، وعلى أثر أعماله وجهاده علقته به النفوس ، واجتمع عليه الرأي فقاد للخير وابتغى المصلحة ، وتكاملت له الزعامة العلمية والدينية ورحل الى الحجاز وإيران ومصر للبحث والتحقيق والتتبع ، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق .

حياته العلمية :

ومع المشاكل الاجتماعية المتراكمة ، من حوله ، والصعاب والأحداث المريعة المنتفة في جوانبه ، والمخاطر المزدحمة في طريقه ، لم تُثنه من السير والمواصلات ، ولم تصرفه عن النظر في حياته العلمية ، وما استطاعت أن ترحزحه عن عمله ألفتني ، فهو في الوقت الذي يوفي حقّ تلك المشكلات الشاغلة ، يوفي بشهامته حقّ علمه فيبلغ

من المكتبة نصيبه الذي محتاجه حياته العلمية مع العلم أن السيد الأمين . . . كان منذ ترك النجف الأشرف على اتصال وثيق مستمرّ بالبحث والمطالعة والمناظرة والتتبع .

وليس أدلّ على هذا من إنتاجه الفكري الغزير ، ونشاطه العلمي الثري النبيل ، وأن تصانيفه وبحوثه إن دلت على شيء فأنما تدلّ على أنه كمن لا ينصرف إليها ولا من يشتغل بغيرها ، فتأليفه على كثرتها لا تخلو من الأصالة ، والتعمق ، والاستيعاب ، والدقّة ، والمتانة ، والرصانة ، والأناقة ، والرفعة في الفكر واللفظ والأسلوب .

إن مؤلفات السيّد الأمين (تغمّده الله برحمته) كثيرة من حيث الكميّة وأنّه دليل على ملكة خصبة أصيلة ومناعة علمية لا يؤخّرها أشدّ العوائق والشدائد عن الإتيان .

مؤلفاته المنضودة :

أعيان الشيعة (الموسوعة الكريمة) .

المجالس السنّية ١ - ٢ .

الدرّ الثمين في معرفة أصول الدين .

أساس الشريعة في الفقه الإستدلالي .

جزيلة المعاني في أصول الدين .

شرح تبصرة المتعلمين .

إفناع اللائم على إقامة المآثم .

الدرر المنقاة .

لواعج الأشجان .

مفتاح الجنّات ١ - ٣ .

الرحيق المختوم في المنثور والمنظوم .

معادن الجواهر في علوم الأوائل والأواخر ١ - ٤ .

كشف الارتباب .

الدروس الدينية .

الدرّ النضيد في رثاء السبط الشهيد .

أصدق الأخبار في قصة الأخذ بالثار .

تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب .

البحر الزاخر في شرح أحاديث الأئمة الأطهار .

الحصون المنيعّة .

- . جناح الناهض .
- . الدرّة البهية .
- . الروض الأريض .
- . سفينة الخائض .
- . ضياء العقول .
- . أرجوزة في الإرث .
- . أرجوزة في الرضاع .
- . أرجوزة في علامات المجاز .
- . صفوة الصفوة في النحو .
- . المنيف في علم التصريف .
- . كشف الغامض .
- . دعل الخزاعي .
- . أبو فراس الحمداني .
- . مناسك الحج .
- . رسالة في الردّ على صاحب المنار .
- . نقض الوشيعة .
- . ديوان شعر .
- . حاشية على كتابي المعالم والقوانين في الأصول .

تتميم عنوان المعارف للصاحب بن عباد .

وقد طبعت الكتب هذه عدّة مرّات وترجم بعضها الى اللغة الفارسية والهندية . إلى عشرات من الكتب التي استنسخها بخطّه أو اختصرها أو أمر وأنفق على استنساخها ومنها كتاب - نسمة السحر في ذكر من تشيّع وشعر - للسيد يوسف بن يحيى الحسيني اليماني الصنعاني المتوفى ١١٢١ هـ والذي هو الآن قيد التحقيق والبحث وسيقدّم للطبع قريباً بحول الله توفيقه .

توفّي (طيّب الله رمسه) . . في بيروت اليوم الخامس من رجب عام ١٣٧١ هـ ونقل جثمانه الطاهر في حشد مهيب ، وحفل كريم الى دمشق ودفن عند مدخل الصحن الشريف من الجانب الأيمن لمرقد السيّدة العقيلة زينب بنت الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وكتب عنه دراسات خاصة بالإضافة الى كثير من الذين ترجموا له في معاجمهم وبحوثهم .

هذا البحث :

أما البحث هذا - القضايا الاجتماعية في نهج البلاغة - فهو مستل من كتاب - المجالس السنّية - المجلد الثاني ، بعد التصحيح والتدقيق والإشارة الى الخطب والكلمات التي استشهد بها المؤلّف في بحثه ، وكانت مراجعتنا فيها الى - نهج البلاغة - ١ - ٤ طبعة دار المعرفة لبنان .

محمد هادي الأميني

الأغراض الاجتماعية في نهج البلاغة

المقدّمة :

إن شخصية أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) من أقوى الشخصيات التي عرفها التاريخ ، ولست بسبيل أن أفصل ما فيها من نبل وقوة وخصائص تستهوي الأئدة ، وإنما سبيلي أن أبحث جانباً من جوانب هذه الشخصية الرائعة المستفيضة . وهو جانب النظرة الاجتماعية فيها ، تلك النظرة التي أودعها نهج البلاغة والتي بلغت من العمق والبيان درجة أغرى سُمُوها بعض أشياع الأمويين وفريقاً من الباحثين ، إلى نفيها عنه والذهاب الى أنها هدية الخلود صاغها للجدّ حفيده الشريف الرضي ، الشاعر الموهوب .

غير أن هذه الآراء كثيرة مبثورة وكثيراً ما يتكرر
الرأس الواحد أكثر من مرة ، وليس « نهج البلاغة »
بمُقَسَّم تقسيماً يفصل كل مجموعة متشابهة من الآراء عما
عداها ، وهذا هو موطن الصعوبة ولكنه أيضاً مهمة
الباحث ، وعلى هذا فسنقسم الآراء الى :

١ - علاقة الإنسان برّبه .

٢ - علاقة الإنسان بنفسه .

٣ - علاقة الإنسان بغيره .

٤ - ثم سياسة الدولة وهو باب متشعب كما سنرى .

وقد يعترض معترض بأن القسمين الأولين الباحثين
في علاقة الإنسان برّبه وعلاقته بنفسه يجب أن يستبعدا
من بحث مقصور على الأغراض الاجتماعية أي على ما
يقوم بين الناس من معاملات ليس منها ، معاملات الفرد
للخالق ولا لنفسه التي بين جنبيه ولكن هذا الاعتراض
غير وجيه ، الا بالنسبة للآراء الميتافيزيقية البحتة التي
بحث فيها الإمام بحثاً مطولاً عن منشأ الكون وعلاقة
الاجرام بعضها ببعض وكيفية خلق الملائكة والبشر ،

تلك الآراء التي وجدناها خارجة عن موضوعنا
فاستبعدناها .

أما علاقة الإنسان برّبه ، فالمقصود بها هنا ، الوصايا
التي وجهها الإمام الى مجتمعه ليعمل بها فيما يختص
بالخالق الجليل وبذلك تكون أعمالاً بشرية ، ان لم تكن
اجتماعية بالمعنى العلمي الخرفي ، فهي اجتماعية لأنها
مطلوب القيام بها من الجماعة ولأنها مظهر اجتماعي
ومؤثر قوي في السلوك الاجتماعي البحت أي في سلوك
الأفراد إزاء بعضهم بعضاً . أما فيما يختص بعلاقة
الإنسان مع نفسه فالمسألة أوضح ، لأننا بتدريب أنفسنا
على منهج خاص نخلقها خلقاً جديداً وهذا الخلق مؤثر
أبعد التأثير في نوع تعاملنا مع الآخرين ، ولأن العدى
موجودة في الخير وفي الشر ، فكوننا على هذه الحال أو
تلك إغراء لمن هم دوننا ولن هم بمعرض التأثير بمثلنا ،
وعلى أن يحتذوا ذلك المثل ، ولأننا نحن مكوّنو المجتمع
وكما نكون يكون :

هذا إلا أن هذين القسمين شيء قليل بالنسبة

للقسمين الآخرين .

أما عن علاقة الفرد بربه فقد ضمَّ نهج البلاغة بين دفتيه صفحات نادرة في تمجيد الله وتحليل صفاته ، وكثر فيه النصح بإلقاء النفس إلى الله كما جاء في وصية الإمام لابنه وبشكره على نعمائه وعدم الاغترار بما يُوفَّق إليه من النجاح « وإذا أنت هُديت لقصدك ، فكن أخشع ما تكون لربِّك »^(١) . وأوصى ابن أبي بكر بقوله : « . . . ولا تُسَخِّطِ الله برضا أحد من خلقه فان في الله خَلْفاً من غيره ، وليس من الله خَلْفٌ في غيره »^(٢) . ويمثل هذا كان يفتتح خطابه الى ولاته وقضاته ؟ ولنستمع إلى قوله حين بعث بعض عمّاله على الصدقة : « أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله حيث لا شاهد غيره ولا دليل دونه وأمره أن لا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر » ، وليس غريباً أن يوصي بما أوصى به القرآن من الرجوع إليه وإلى

(١) نهج البلاغة ج ٢ / ٤٧ .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ / ٣٠ .

الحديث عند التباس الأمور فيقول : « وأردد إلى الله ورسوله ما يُضِلُّعُك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور »^(٣) . وليس غريباً أيضاً أن يعتبر الشكوى من نوائب الزمان شكوى من الله فيقول : « من أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكوربه » .

وقد ظهرت عقيدته الراسخة في الله ودعوته الى نصرته دينه في قوله : « لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك وأولياء الله فان الله لا يضيع أولياءه وإن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله »^(٤) .

على أن نغمته الزاهدة لا تفتأ تتكرر فهو يقول لنا هنا : « من رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته »^(٥) ويقول لنا هناك ان « الرزق رزقان ، رزق تسعى إليه ورزق يسعى إليك »^(٦) وهذا قول حكيم لأنه لا يدعو

(٣) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٦ .

(٤) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٢٨ .

(٥) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٢٧ .

(٦) نهج البلاغة ج ٢ / ٥٦ و ٢٣٦ .

إلى الكسل وانتظار الرزق من الله ، بل يقول ان السعي يزيد الرزق ولكن يجب على المرء ألا يُشغَل بجميع جوارحه بالسعي وراء الدنيا فيغفل عن العمل الصالح .

سبق إيراد قوله (عليه السلام) : « من أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربّه »^(٧) .

والآن نضمّ إلى ذلك قوله « ولا يحمد حامدٌ إلا ربّه ، ولا يلمّ لائمٌ إلا نفسه »^(٨) . انّ النصّ الأول يدعونا إلى عدم شكوى الزمان ، لأنّ الزمان يجري كما قضى الله وقدر ، فنثورنا عليه ليست إلا ثورة على قضاء الله وقدره ، أما النصّ الثاني فانه يدعونا إلى أن نعتقد أن الخير من الله ، وان الشرّ من أنفسنا أي ان الله أعطانا عقلاً نُميّز به بين الطريقين كما قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾^(٩) فان سلكنا طريق الشرّ فلا نلّم إلا أنفسنا . وان سلكنا طريق الخير فلا نحمد إلا الله لأنه هو الذي

(٧) نهج البلاغة ج ٢ / ١٩٥ .

(٨) نهج البلاغة ج ١ / ٥٦ .

(٩) سورة البلد / ٩ .

أرشدنا .

أ - وأمّا عن علاقة الفرد مع نفسه فقد قال (عليه السلام) في وصيّته إلى ابن أبي بكر : « . . . فأنت محقّق أن تخالف على نفسك »^(١٠) أي أن تخالف هواك وتُحكّم عقلك . ثم قال في موضع آخر : « من كان له من نفسه واعظاً ، كان عليه من الله حافظاً »^(١١) وأوضح ذلك الرأى بموضوع ثالث بقوله : « من لم يُعِن نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر ، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ »^(١٢) .

لقد عرف الإمام علي أن بالنفس نوازع شرّ ونوازع خير فدعا الى التشديد عليها حين تأمر بالسوء واستعان عليها بالله في قوله : « والله المستعان على نفسي وأنفسكم »^(١٣) ثم اعتمد على الضمير اليقظ وأهاب بنا

(١٠) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٩ .

(١١) نهج البلاغة ج ٢ / ١٦١ .

(١٢) نهج البلاغة ج ١ / ١٧٤ .

(١٣) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٧١ .

أن نقويّه فأنّه عاصمنا ومنه المزدجر . وقد زاد من عنايته بالتدريب النفسي انه اعتقد أن الطباع كسبية فقال : « إن لم تكن حليماً فَتَحَلَّم . فأنّه قَلَّ من تشبّه بقوم الا أوشك أن يكون منهم »^(١٤) . وآته اعتقد ان الإنسان مفطور على الخير وان الخير في عودته لفطرته فقال : « الله بعث في الناس رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته »^(١٥) فمهمّة الأنبياء عنده أعادتنا إلى الفطرة التي فطرنا الله عليها .

ب - ونلاحظ أنه أكثر من النهي عن (الأمل) لا الأمل الذي نعرفه والذي حثّ الله عليه بل أوجبه في ذكر أقواله (تعالى) : « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »^(١٦) وأنما الأمل بمعنى الاعتماد على طول الأجل ، وارتكاب المحرمات ، وارجاء الفرائض اعتماداً على ذلك وهذا رأي نشاركه كلنا فيه فان كل ما بالعالم يمرّ

(١٤) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٩١ .

(١٥) نهج البلاغة ج ١ / ٢٦ .

(١٦) سورة يوسف / ٨٧ .

في سرعة وثابة وما أنصف ولا أصاب من يبذر في صحته أو ماله اعتماداً على وفرة صحته أو ماله ولا من يؤجل العمل انتظاراً للغد . فان الغد يمرّ ونمرّ معه ، واذن فما أحرانا أن نعمل بنصيحة الامام القائلة « وبادروا آجالكم بأعمالكم »^(١٧) وان نتدبّر قوله : « ان أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل »^(١٨) .

ج - لم أكد أبدأ بالكتابة عن علاقة الانسان بربه حتى شعرت بنحولة الفاصل بين هذا القسم والقسمين الآخرين ، وها أنذا الآن أشعر بهذه النحولة أيضاً : فهما هي حكم ووصايا تدخل في سلوك المرء مع نفسه ، وتدخل في سلوكه مع غيره كقوله « قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان والفرصة تمرّ مرّ السحاب فانتهزوا فرص الخير »^(١٩) ومثل قوله : « الصبر صبران : صبر

(١٧) نهج البلاغة خطبة ١٩٠ .

(١٨) نهج البلاغة / خطبة ٢٨ .

(١٩) نهج البلاغة / قصار الحكم - ٢١ .

على ما تكره وصبر على ما تحب»^(٢٠) وقوله البليغ :
« أفضل الزهد إخفاء الزهد »^(٢١) ونهيه : « وإياك
والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحبّ الاطراء
فان ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما
يكون إحسان المحسنين »^(٢٢) فان دعوته الى الشجاعة
والجرأة وانتهاز فرص الخير وتحمل الداء وعدم الاستقامة
إليه ، والصبر بنوعيه ، وإخفاء الزهد أي الزهد في سبيل
التظاهر والزهد بالقلب مع مواصلة العمل والجهاد ،
ونهيته عن الإعجاب بالنفس وحبّ الثناء ، كل هذه
العهود يتناولها المرء بينه وبين نفسه وبينه وبين غيره . أما
أمره : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق »^(٢٣) أي لا
تعرض نفسك للهلاك إلا أن تقضي غاية سامية وضرورة
لازمة ، فانه أدخل في نطاق المعاملة النفسية .

التعاش السلمي

إذا كان عليّ (عليه السلام) قد وضع لنا هذه
القاعدة النبيلة في قياس الفضيلة والخير ، وهي ألاّ نعمل
في السرّ ما نخجل من عمله في العلن حيث قال :
« واحذر كل عمل يُعمل به في السرّ ويُستحى منه في
العلانية »^(١) فانه قد حباننا أيضاً بمقياس نبيل لأعمالنا تجاه
الآخرين في قوله الخالد : « يا بنيّ اجعل نفسك ميزاناً
فيما بينك وبين غيرك فأحجب لغيرك ما تحبّ لنفسك ،
واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن
تُظلم »^(٢) ولو اتبع البشر هاتين النصيحتين لامتنع الظلم
والشرّ جميعاً ، غير أنه يمكن أن نلاحظ ملاحظة متواضعة

(١) نهج البلاغة : كتاب رقم ٦٩ .

(٢) نهج البلاغة : كتاب رقم ٣١ .

(٢٠) نهج البلاغة / قصار الحكم - ٥٥ .

(٢١) نهج البلاغة / قصار الحكم ٢٨ .

(٢٢) نهج البلاغة / من كتابه (ع) لمالك الأشتر رقم ٥٣ .

(٢٣) نهج البلاغة / كتاب رقم ٦٩ .

ب - وإذا ذكرنا تطوّر الفضائل وخلودها فلنستعرض رأي الإمام القائل : « إقدموا على الله مظلومين ولا تقدموا على الله ظالمين »^(٤) . أن من الناس من لا يريد أن يُسَلَّم بأن الانظلام فضيلة :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يَهْدَم ومن لم يظلم الناس يُظَلَم
وربّما مال أيضاً الى أن يقول مع هيغل^(٥) : « ان ظَفَرَ شعب هو البرهان القوي على حقوقه » غير أن عبارة الإمام انما يراد بها مبالغة في التنفير من الظلم .

ج - ولقد دعا الإمام الى التعاون دعوة صريحة في عبارة نبيلة حيث قال يودع جنوداً ذاهبين للقتال : « وأي امرئ منكم أحسن من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ورأى أحداً من اخوانه فثبلاً ، فليذب عن أخيه بفضل نجدته التي فُضِّل بها عليه كما يذب عن نفسه فلو شاء الله

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٥١ .

(٥) هيغل فيلسوف ألماني مات سنة ١٨٣١ م .

على النصيحة الأولى : تلك ان نظرة المجتمع قد تتغير نحو بعض الفضائل أو الرذائل ، فاذا كان ما يُستحى من عمله يعمل على رؤوس الأشهاد فهل الفضائل خالدة ، أم هي يجري عليها ناموس التطور ، وهل يطبع نصيحة الإمام أم لا يطيعها رجلٌ يحتمي الخمر على قارعة الطريق غير خجل لكثرة من يحسونها ؟ أما أنا فأميل الى القول بأن الفضائل خالدة ، وان الكذب لن يكون فضيلة لأن الناس يكذبون بل الفضيلة فضيلة والرذيلة رذيلة ولن يزال راكبها يشعر في نفسه بالتضاؤل وبنوع من الحياء لا حين يلقي أمثاله ولكن حين يلقي الأخيار .

وما لي أذهب بعيداً ؟ ان الإمام يفسّر لنا ذلك في موضع آخر حيث يقول في بيان شاف : « ان المؤمن يستحلّ العام ما استحلّ عاماً أول ويجرم العام ما حرم عاماً أول وان ما احدث الناس لا يُحَلّ لكم شيئاً مما حرم الله عليكم ، ولكن الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرم الله »^(٣) .

(٣) نهج البلاغة / الخطبة ١٧٦

فيلسوف اليونان (حيوان اجتماعي) ولهذا دعا الإمام دعوته .

د - وقد تكرّرت دعوة الإمام هذه في صورة أخرى في حثّه على الصدقة بقوله البليغ : « وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل زادك الى يوم القيامة فيوافيك به غداً حين تحتاج إليه فاغتنمه وحمله إياه »^(٩) . وبوصيته : « إن اللسان الصالح - أي الذكرى الطيبة - يجعله الله للمراء في الناس خيراً له من المال يورثه من لا يحمده » . وفي تذكيره بفريضة الزكاة في قوله : « أن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما مَتَّع به غنيّ والله تعالى سائلهم عن ذلك »^(١٠) . وقد بلغ من تقريره للتعاون ولأثر الزكاة والاحسان في إسعاد أفراد المجتمع جميعاً انه استنّ تشريعاً طريفاً بقوله : « ان الرجل اذا كان له الدّين الظنون يجب عليه أن يزكّيه لما

لجعله مثله »^(٦) . وما أوصى به الامام جنود جيشه يصحّ أن يستوصي به جنود الحياة . ان الغني لو ذبّ عن الفقير بفضل ماله الذي فضّل به عليه والعالم لو ذبّ عن الجاهل بفضل علمه والحكيم لو أرشد السفية بفضل حكمته ، لو كان هذا سبيل الناس في الحياة ، لانتصر جيشهم على آلام الحياة القابلة للانهزام . ان الإمام لا يزال يلحّ في دعوته الى التعاون ، وانه ليسوقها هنا في منطق واضح وحقّة لازمة : « أيها الناس لا يستغني الرجل وان كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألستهم »^(٧) . « ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه ، ومن يقبض يده عن عشيرته فأنما تُقبض منه عنهم يد واحدة . وتُقبض منهم عنه أيدي كثيرة »^(٨) . إن الإنسان مدني بالطبع أو هو كما وصفه

(٦) نهج البلاغة ج ١ / ٢٥٤ .

(٧) نهج البلاغة ج ١ / ٦٩ .

(٨) نهج البلاغة ج ١ / ٦٩ .

(٩) نهج البلاغة ج ٢ / ٤٨ .

(١٠) نهج البلاغة ج ١ / ٢٥١ .

مضى إذا قبضه» (١١) أي أن من كان له دين ولم يكن واثقاً أن مدينه سيرده إليه سالماً ، ثم رده إليه بعد عامين مثلاً ، وجب عليه أي على صاحب المال الدائن أن يدفع للفقراء زكاة هذا المال للستين الماضيتين . ولست أعرض لكم حكم الشريعة الإسلامية في هذا ولكني ألاحظ أن رأي الامام وجيه إذا اعتبرنا أن المال صار بالنسبة للدائن مفقوداً بوجوده عند من لا يثق به . فاذا عاد إليه فكأنما عثر على كنز غير منتظر . واذاً فليس كثيراً أن يدفع منه شيئاً للفقراء ان لم يكن زكاة عنه فشكراً لله عليه . « ومن كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه » (١٢) كما قال الامام ، وكما قال شكسبير : « ان الشاريف العظيمة احمال عظيمة » .

هـ - لقد زهد الإمام بهذه الدنيا وأهاب بها أن تغرَّ غيره . بل لقد زجر منها في صرخته : « والله لو كنت شخصاً مرثياً وقالباً حسياً لأقمتُ عليك حدود الله في عباد

(١١) نهج البلاغة ج ٤ / ٥٩ .

(١٢) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٣٣ .

غررتهم بالأمان وأمم ألقيتهم في المهاوي» (١٣) هكذا كانت نظرتة الصادقة الى الحياة فلا عجب أن يمتلئ قلبه بالعطف على الناس وأن يدعو الى إنقاذ الضعفاء وعدم خزن المال بكلمته الرهيبة : « يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فانت فيه خازن لغيرك » (١٤) .

ان الشعور السائد على نهج البلاغة كله هو شعور التنديد بالتهالك على الدنيا « وحفظ ما في يديك أحب إلي من طلب ما في يد غيرك . فحفظ في الطلب وأجمل في المكتسب فانه رب طلب قد جرَّ الى حرب . فليس كل طالب بمرزوق ولا كل مجمل محروم » (١٥) . هذه وصاياه ولكنه لا يدعو الى الزهد الذي ينافي الدين والحياة ، فهو يعمل ويحارب ، ولكن على أرض الشرف ولغاية نبيلة .

(١٣) نهج البلاغة ج ٢ / ٧٦ .

(١٤) نهج البلاغة ج ٢ / ١٨٨ .

(١٥) نهج البلاغة ج ٢ / ٥٤ .

و- ان ما مرّ بنا من دعوته الى التعاون والاحسان ووفاء الزكاة ليس إلّا بعض دعوته الى « الحبّ العام » .
فإنّ قلبه النبيل قد غمر بهذه العاطفة الشريفة وثبتها إيمانه القوي المنقطع النظير وليس غريباً من صادق النبي والأصدقاء قليل ، وشاطره آلامه وجهاده ، فشعر بحلاوة الصداقة . ومن عانى الحسد والحقد للذين دفعوا معاوية وغيره لمناواته . ومن خبر تأثير التخاذل والتباغض حين خرج الخوارج وتخاذل قومه ، ليس غريباً على من هذا شأنه أن يهيب بنا « ولا تحاسدوا فان الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب ولا تباغضوا فإنها الخالقة » (١٦) وأن يقول : « صحّة الجسد من قلة الحسد » (١٧) ذلك القول الذي تؤيّده ملاحظتنا اصفرار الوجه ونحوه فيمن عرفوا بالحقد . وأن يُقسم لنا : « والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلّا وخلق الله من ذلك السرور لطفاً فاذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في

(١٦) نهج البلاغة ج ١ / ١٦٤ .

(١٧) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٠١ .

انحداره حتى يطردها عنها كما تطرد غريبة الابل » (١٨)
وان يوصينا خيراً بجيراننا قائلاً :

« الله الله في جيرانكم فانها وصية نبيكم ، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم » (١٩) .

ز- قلت : أنه قد عرف الصداقة في نفسه وخبرها فلنستمع إلى وصاياه بصددتها : لقد بالغ في طلب الحرص على الصديق الوفي حتى قال : « ولا يكن على مقاطعتك أقدر منك على صلته » (٢٠) وأوصى بالبحث عن الرفيق قبل الطريق . وحمد الذين « يتواصلون بالولاية ويتلاقون بالمحبة » ودعا الى عدم الكلفة بين الأصدقاء بقوله « احبّ حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » (٢١) . ولقد نتساءل كيف يشك الإنسان

(١٨) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٠١ .

(١٩) نهج البلاغة ج ٢ / ٧٩ .

(٢٠) نهج البلاغة ج ٢ / ٥٦ .

(٢١) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٩٠ .

والطريق الوسطى هي الجادة»^(٢٤) . وقد أنذر بأنه سيهلك فيه صنفان : « محب مفرط يذهب به الحب الى غير الحق ومبغض مفرط يذهب به البغض الى غير الحق »^(٢٥) وهذه الكلمات هي ، بجانب دعوتها الى القصد ، دعوة الى الخصومة الشريفة ونزع الهوى الشخصي عند مناقشة أعمال الحكّام والسوّاس .

ط - ما كان نهج البلاغة وقد ضمّ بين دفتيه هذه الآراء الاجتماعية الكثيرة ليغفل (المرأة) وشأنها في المجتمع . ولقد عبّر الإمام عن رأيه فيها بوضوح ، فاذا به رأي قاس لا يقلّ قسوة وعنفاً عن رأي (شوبنهاور) فيها وذلك الرأي يتلخّص في قوله : « المرأة شرّ كلّها وشرٌّ ما فيها أنّه لا بدّ منها »^(٢٦) وهكذا ذهب في موضوع آخر الى ان « خيار خصال النساء شرار خصال

(٢٤) نهج البلاغة ج ١ / ٥٦ .

(٢٥) نهج البلاغة ج ١ / ٢٦١ .

(٢٦) نهج البلاغة ج ٢ / ١٩٧ .

في صديق وفي خبره فيحفظ في صداقته وكيف تستقيم صداقة مع تحوط ، ولكننا لا يصعب علينا أن نعرف ما حمل الامام على قول ذلك فقد عانى من تقلب الاصحاب وانشقاق الاخوان ما عانى . ولعل هذا العناء هو ما دفعه - ولنقل ذلك ونحن بمعرض آرائه في الصداقة - الى أن يقول : « الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله »^(٢٢) ان هذه الكلمة القوية ما كانت لتصدر من ذلك القلب الوادع المسلم لولا أن أصابته شظايا الغدر فثار .

ح - دعا الإمام الى القصد في الحبّ والبغض وهذه الدعوة تذكّرنا بدعوات له أخر تحثّ كلّها إلى الاعتدال وعدم الاندفاع وليس أبلغ من قوله في الحدة أنها « ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحکم »^(٢٣) وقوله : « اليمين والشمال مضلة ،

(٢٢) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٠١ .

(٢٣) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٠٠ .

الرجال» (٢٧) . وهذا القول قد يحمل على ان ما يستحب في النساء لا يستحب في الرجال ولكن هذا الاحتمال لا يؤثر في الموضوع فرأى الإمام في المرأة واضح . وقد نعتها في موضوع ثالث بأنها «عقرب حلوة اللبسة» (٢٨) . ثم دعا الناس الى أن يتقوا شرار النساء ويكونوا من خيارهنّ على حذر ولا يطيعوهنّ في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر ، ويمثل هذا نهى في موضع آخر عن التمكين لهنّ والسماح لهنّ بالتشقق والرجاء في أمور الناس . والذي نلاحظه أنه (عليه السلام) قد سلّم أن بين النساء خياراً بدليل قوله : « وكونوا من خيارهنّ على حذر » (٢٩) فهو يتّهم الطبيعة النسوية على العموم ويخشى أن تتغلب على خيار النساء فيصبحن شريرات .

ي - لم يكن رأي الإمام في النساء صادراً عن تعصّب جنسي ، فان المعركة لم تكن قد نشبت بعد بين النساء

والرجال ، وما كان الإمام ليتعصّب وهو السذي ذمّ العصبية في الخطبة (القاصعة) ورد أصلها الى تعصّب إبليس للنار ضدّ الطين : « أما إبليس فتعصّب على آدم لأصله وطعن عليه في خلقته فقال : « أنا ناري وأنت طيني » (٣٠) وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » (٣١) فان كان لا بدّ من العصبية دعوة هينة فالعصبية سبب لمصائب كثيرة كان منها حروب كثيرة أثارها التعصّب للجنس أو الدين أو اللون أو المذهب أو الوطن . ولعل مما يبين كراهته (عليه السلام) للتعصّب ، وهو حقيق أن يكره التعصّب لما ذاق من التعصّب قوله : « ليس بلد بأحقّ من بلد ، خير البلاد ما حملك » (٣٢) .

ك - وقد نهى (عليه السلام) عن الغشّ في المكاييل ،

(٣٠) نهج البلاغة ج ١ / ٤٠٩ .

(٣١) سورة سبأ / ٣٥ .

(٣٢) نهج البلاغة ج ٢ / ٥٤ و ٢٤٩ .

(٢٧) نهج البلاغة ج ٢ / ١٩٦ .

(٢٨) نهج البلاغة ج ٢ / ١٥٦ .

(٢٩) نهج البلاغة ج ١ / ١٤٠ .

وعن احتكار التجارة وقبح الغيبة بتحليل بديع قائلاً :
« وأما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة
أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو
الغالب عليهم والحاجز لهم عنهم ، فكيب بالعائب الذي
عاب أخاه وغيره ببلواه . . . وأيم الله لئن لم يكن عصاه
(عصى الله) في الكبير وعصاه في الصغير جُرأته على
عيب الناس أكبر . . . فليكيف من علم منكم عيب
غيره لما يعلم من عيب نفسه وليكن الشكر شاغلاً له على
معافاته مما ابتلي به غيره » (٣٣) .

وكذلك دعا إلى الاتحاد قائلاً : « وإياكم والفرقة
فإن الشاذ من الناس للشيطان كما إن الشاذ من الغنم
للذئب » (٣٤) ونهى عن البدعة في قوله : « وما أحدثت
بدعة إلا ترك بها السنة فاتقوا البدع والزموا المهيع ،
وحذر من تعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر
فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن والكاهن

(٣٣) نهج البلاغة ج ١ / ٢٧٧ .

(٣٤) نهج البلاغة ج ١ / ٢٦١ .

كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار » (٣٥) .

ل - ان من تحصيل الحاصل أن نقول ان الإمام دعا
الى اتباع الحق ، وأما الذي نريد هو أن نرى فهمه للحق
كيف كان ، وأن نرى نسبة هذا الفهم إلى نظريات اخرى
في الحق .

يقول « اهرنج » (٣٦) وغيره من متشرعي الألمان
الذين تأثروا بمبدأ فناء الفرد في الدولة : « ان الحق هو ما
جعلته الدولة حقاً » . ويقول الواقعيون ان الحق ليس إلا
من وضع الإنسان ولم يخرج تكييفه من إرادته وهواه .
ويقول اهرنج أيضاً : « ان أساس الحق ليس فكرة
منطقية وإنما هو القوة » ويقول هيجل : « ان ظفر شعب
هو البرهان القوي على حقوقه » .

هذا هو رأي فريق من العلماء في الحق ومقياسه وهو
رأي خطر وقد اتهمه الفرنسيون بأنه سبب الحرب

(٣٥) نهج البلاغة ج ١ / ١٣٩ .

(٣٦) مستشرق ألماني عاش في القرن التاسع عشر الميلادي .

العالمية ، واتهموا الألمان لأنهم أنصروه ومرّوجوه . وهو رأي يعارضه فريق كبير من العلماء والناس ، وقد كان (قيويه) لسان هذه المعارضة في قوله : « الحق فكرة تتوجه نحو المستقبل وأساسها الضمير الانساني والشعور بالمساواة والحرية للجميع » .

ورأي (باسكال) : ان القوة يجب ألا تستعمل إلا لخدمة الحق : « علينا أن نحمل العدالة والقوة معاً وانما لا نقصد إلا ما كان حقاً ، ولا نستعمل القوة الا لتوطيد الحق » .

هذان هما الرأيان المتعارضان فإلى أيهما ينتمي رأي الإمام عليّ ؟ لسنا محتاجين إلى أقل تفكير للقول أن رأيه هو الثاني ، قال الامام عليّ : « حق وباطل ولكل أهل ، فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ، ولئن قلّ الحق ، فربما ولعل ، ولقلّ ما ادبر شيء فأقبل » (٣٧) . وهذا النص واضح وصريح في أنّ الإمام لا يرى كثرة الباطل تجعله حقاً ، بل ينتظر ان تزول دولته ، قائلاً ان الشيء قد يدبر

(٣٧) نهج البلاغة : الخطبة / ١٦ .

فيقبل ، أي انه مؤمن بخلود الحق ، وهو الفائل في غير نهج البلاغة « دولة الظلم ساعة ودولة العدل الى قيام الساعة » وقد تروى « دولة الباطل ودولة الحق » لأنهم لم يفرقوا كثيراً بين العدل والحق .

أما نظرية الحق والدولة فهي منافية لرأي الإمام بالطبع ما دام يعتبر الحق خالداً ، وهو لا يفتأ ينهي الولاية عن ظلم الرعية ويدعو إلى المساواة والشورى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله . أي أنه لا يرى للحاكم حقّ اختراع الحقوق ولا يرى الحق كما رآه الواقعيون من وضع الانسان . ولا يرى انتصار شعب برهاناً على حقوقه بل يقول : « ان الله لم يقصم جبّاري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء . ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل وبلاء » (٣٨) .

وإذا كان اتفق مع الفائلين بأن الحق أزلي وبأنه تراعى فيه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة . فانه اتفق

(٣٨) نهج البلاغة : الخطبة / ٨٨ .

مع رأي باسكال القائل باستعمال القوة لتوطيد الحق فالإمام يقول : « واني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم فان أبوا أعطيتهم حدّ السيف وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق » (٣٩) . وخاطبه قوم في عقاب قاتلي عثمان ، فقال ان الحكمة تقضي بالترّث حتى يستتب الأمر « وإذا لم أجد بداً فأخر الدواء الكيّ » (٤٠) أي القتل والحرب يستعملها حين تفشل وسائل السلم ، وحين يرفض خصومه الاحتكام الى الله ، وهذا دستور هيئة الأمم حيال الدول التي تأبى التحكيم .

يقول فريق من الناس : ان الحق قد يتعدد ، فأنا أظنّ الأمر وأنت تظنّ نقيضه ، ولكنّي محقّ وأنت مثلي محقّ . ويقول آخرون ان الحق واحد لا يتعدد ، وقد أخذ الإمام بهذا الرأي الأخير فقال : « ما اختلفت دعوتان الا كانت إحداها ضلالة » (٤١) .

(٣٩) نهج البلاغة : الخطبة / ٢٢ .

(٤٠) نهج البلاغة : الخطبة / ١٦٨ .

الحكم . السياسة . القضاء

ان للإمام آراء قيّمة محكمة في طبيعة الحكم وسياسته ومهمة الحاكم وكيفية انتقاء القضاة وتقسيم العمل ومهمة العلماء الى غير ذلك ، وقد جمعت رسالته الى الأشر النخعي كثيراً من هذه الأمور ، ولكنها ليست الوعاء الوحيد الذي ننشد فيه تلك الحكم فنقصر بحثنا عليها .

أ - قال : « لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل في امرته المؤمنون ، ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتضمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ ويستراح من فاجر » (١) وهذا كما نرى رأي يعاكسه الفوضويون اليوم وقد عاكسه الخوارج بالأمس ، ولكن ما

(١) نهج البلاغة ج / ١ / ١٠٠ .

ج - وإذا كان قد دعا الى (الشرعية) وعدم تشعب الآراء واستقلال كل برأيه ، فليس معنى هذا أنه دعا إلى الاستبداد والحكم المطلق ، بل على العكس لا نزال نسمعه يلح بالدعوة الى الشورى فيقول لنا : « من استبدَّ برأيه هلك ومن شاور الرجال شاركها في عقولها » (٢) ويكرر ذلك في أماكن أخرى وبألفاظ كثيرة .

وقال في كتاب لأحد ولاته : « وان ظنَّ الرعية بك حيفاً فاصحّر لهم بعذرِكَ واعدل عنك ظنونهم بإصْحارك فإنَّ في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق » (٣) وهذه الكلمات كبيرة حكيمة ، فيها نوع من المسؤولية الوزارية كما نعرفها ونسميها وفيها أيضاً بيان لحكمتها فهي تزيل شكوك الرعية ثم هي رياضة للنفس على تقبل النقد وعدم الأزورار منه ، وعلى التدقيق في الأعمال علماً بأن هناك من سيحاسب عنها .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ / ١٨٤ .

(٣) نهج البلاغة ج ٢ / ١٠٩ .

كان لعلي الحكيم الذي اعتنق دين النظام صيباً أن يدعو بدعوتهم . لقد عرف ان النظام هو كفيل النجاح ، وتآلم وشكا قومه لأن : « المعروف عندهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا ، مفزعهم في المعضلات الى أنفسهم وتعويلهم في المهمات على آرائهم كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعري ثقات وأسباب محكمات » .

وإذا كان قد مقت الخروج عما يمكن أن نسميه (الشرعية) فانه كذلك قد مقت أيضاً الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين في الفتيا قائلاً : « تردُّ على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً وإلهم واحد ونيهم واحد وكتابهم واحد » .

وليس يصعب علينا أن نلمح أن الذي استفزّه الى هذا الانتقاد هو رغبته في النظام وفي توحيد القضاء .

الديمقراطية

ان النزعة الديمقراطية في نهج البلاغة آيين من أن
نحتاج إلى بيان :

فها هو يأمر الوالي بأن يجلس لذوي الحاجات دون
جند أو حرس لكيلا يتعتعوا في توضيح مسائلهم .

بل قد فضل العامة على الخاصة وأن سخط الخاصة
فقال : « أن سخط العامة يُجحف برضى الخاصة ، وأن
سخط الخاصة يُفتقر مع رضا العامة ، وليس أحد أثقل
على الوالي من الرعية مؤونة في الرخاء وأقل معونة له في
البلاء ، وأكره للانصاف وأسأل بالإلحاف وأقل شكراً
على الإعطاء ، وأبسطاً عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً
عند مُلِمّات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين
وجُماع المسلمين والعدة للأعداء : العامة من الأمة فليكن

المساواة لا يزال يذكرها ويوصي بها ويقول لمن يوليه
 « وآس - وساو - بينهم في اللحظة والنظرة حتى لا يطمع
 العطاء في حيفك لهم ولا ييأس الضعفاء من عدلك
 عليهم »^(٥) ويقول في موضع آخر : « ان المال لو كان
 ماله لساوى بين الناس فكيف والمال مال الأمة »^(٦) .

و - ولكن للجمهور سيئاته كما أن له حسناته فلنسمع
 كلمة الإمام في الغوغاء . قال : « الناس ثلاثة فعالم
 رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رُعاع اتباع كل
 ناعق يميلون مع كل ربح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم
 يلجأوا إلى ركن وثيق »^(٧) ووصف الغوغاء في موضع
 آخر من أنهم « إذا اجتمعوا غلبوا وإذا تفرقوا لم
 يُعرفوا »^(٨) وقبل وصفهم بأنهم إذا اجتمعوا ضروا وإذا
 تفرقوا نفعوا لأن كل صانع ينصرف الى عمله فيحصل

- (٥) نهج البلاغة ج ١ / ٢٨ .
 (٦) نهج البلاغة ج ١ / ٢٦٠ .
 (٧) نهج البلاغة ج ٢ / ١٧٨ .
 (٨) نهج البلاغة ج ٢ / ١٨٩ .

صَفْوُكْ لهم وميلك معهم »^(١) وهذا كلام صريح في
 تفضيلهم والاعتماد عليهم . وأنا شخصياً أميل الى الظن
 بأن هذا الكلام كان له تأثير في سلوك بعض زعمائنا
 الذين عُرفوا بميلهم الى الإمام عليّ (عليه السلام)
 والتشبه بكلامه في أكثر من موضع . ولن أطيل في تفصيل
 هذه الديمقراطية ، ولنردّد في سرور قول الامام الجامع :
 « ان أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغشّ غشّ
 الأئمة »^(٢) وقوله الذي يذكرنا بالقول السائر : صوت
 الشعب من صوت الله « أمّا يُستدلّ على الصالحين بما
 يُجري الله لهم على ألسن عبادة »^(٣) .

هـ - وإذا كان الإمام قد أخذ بالديمقراطية كما وضع
 فمن الطبيعي أن نراه نصير الحرية يهيب بابنه « ولا تكن
 عبد غيرك وقد خلقك الله حراً »^(٤) وان نراه رافع لواء

- (١) نهج البلاغة كتاب رقم ٥٣ .
 (٢) نهج البلاغة كتاب رقم ٢٦ .
 (٣) نهج البلاغة كتاب رقم ٥٣ .
 (٤) نهج البلاغة كتاب رقم ٣١ .

النفع . وقد وضع الإمام اصبعه على آفة وطبيعة من آفات وطبائع الجماهير هي سرعة التقلب ، تلك الخاصة الجماهيرية التي وضحتها شكسبير أبلغ إيضاح في (يوليوس قيصر) وكذلك أصاب في ان اجتماعها غلبة وتفرقتها ضياع وفي ان اجتماعها قد يكون في بعض الأحيان مجلبة للضرر ، كما أن تفرقتها مجلبة للنفع لانصراف كل عامل الى عمله ، وهذه النظرة الى الجماهير قد تبدو متعارضة بعض التعارض مع ما سبق من رأيه فيهم ولكن بيان نقص الغوغاء لا يستلزم استبعاد رأيهم .

ز - عرض (عليه السلام) الصفات الواجب توفرها في الامام فقال : « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه » (٩) ، وذم العلماء الذين لا يعملون بعلمهم في أكثر من موضع . وحدد العلاقة بين الراعي والرعية فقال : « أيها الناس إن لكم عليّ حقاً ولي عليكم حق ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتوفير فينكم عليكم

(٩) نهج البلاغة ج ٢ / ١٥٨ .

وتعليمكم كيلا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا . وأما حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب والاجابة حين أدعوكم والطاعة حين أمركم » (١٠) . ولنلاحظ هنا أنه يجعل من حقه على الشعب أن ينصحه الشعب وهذا مبالغة في السعي وراء الكمال . وكما هو نبيل قوله لقومه رداً على من أثني عليه : « فلا تكلموني بما تكلمون به الجبابرة ، ولا تحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ولا تخالطوني بالمصانعة ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي ولا التماس اعظام لنفسي . فانه من استثقل الحق ان يقال له والعدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكفؤا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فاني لست بنفسي فوق أن أخطيء » (١١) .

وذم خلة الغدر فقال : « والله ما معاوية بأدهى مني ولكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس ، ولكن كل غُدرة فجرة وكل فجرة كفره ولكل

(١٠) نهج البلاغة ج ١ / ٩٣ .

(١١) نهج البلاغة ج ٢ / ٤٦٢ .

غادر لواء يعرف به يوم القيامة» (١٢) المؤمنين اذن على خلاف مع (أمير) مكياfli .

وأدلى عليّ (عليه السلام) بآراء قيّمة فيما يجب في الولاية فقال : أنهم ملزمون بأن يعيشوا عيشة جمهور الشعب لكيلا « يتبين بالفقير فقره » (١٣) أي لكيلا يسخط الفقير لفقره وليتعرّى بحال أمير . « أفقع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ؟ » (١٤) .

ونصح عليّ (عليه السلام) الولاية بقوله مؤكداً لأحدهم : « ولا يطولنّ احتجاجك عن رعيّتك » (١٥) وتلك نصيحة حق فإن كثرة ظهور الحاكم بين الرعية استتلاف لقلوبها واشعار بها ان الحاكم مهتم بمصالحها ،

(١٢) نهج البلاغة ج ١ / ٤٤٠ .

(١٣) نهج البلاغة ج ١ / ٤٤٩ .

(١٤) نهج البلاغة ج ٢ / ٧٤ .

(١٥) نهج البلاغة ج ٢ / ١٠٧ .

ثم هو منير للحاكم سبيل حكمه ومعطيه الصورة الواضحة لحال شعبه فيعمل على نورها .

وقال : « انه ليس شيء أدعى الى حسن ظنّ راعٍ برعيّته من إحسانه إليهم » (١٦) أي ان الراعي حين يحسن لرعيّته يطمئنّ قلبه ويأمن خيانتهم .

وأمر باحترام التقاليد الشعبية فكان حكيماً بعيد النظر « ولا تنقض سنةً صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الإلفة وصلحت عليها الرعية » (١٧) .

ووجه عليّ (عليه السلام) نصيحة غالية كل الغلو صادقة كلّ الصدق في قوله : « إنّ شرّ وزرائك من كان للأشرار قلبك وزيراً ومن شاركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم . ثم ليكن عندك

(١٦) نهج البلاغة ج ٢ / ٩١ .

(١٧) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٢ .

آثرهم أقولهم بِمَرِّ الْحَقِّ لَكَ» (١٨) ونظرية عليّ (عليه السلام) صحيحة تماماً فان من أثم فيما مضى لا يؤمن إثمه فيما حضر ، ومن اتصل بالظلمة بالأمس لا يؤمن اتصاله بهم اليوم وإعانتهم. على كيدهم بما له من سلطة الوزارة . وكان حكيماً في قوله : « فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداولهم بين القسوة والرفقة » (١٩) .

وأمر الوالي أن لا يرغب عن رعيته تفضلاً بالامارة عليهم فانهم الاخوان في الدين والأعوان على استخراج الحقوق ثم قال له : « وإنا موفوك حقك فوقهم حقوقهم وإلا تفعل فإنك من أكثر الناس خصوماً يوم القيامة وبؤساً لئن خصمته عند الله الفقراء والمساكين » (٢٠) . ودعاه إلى أن يساوي نفسه بهم فيما الناس فيه سواء ،

(١٨) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٠ .

(١٩) نهج البلاغة ج ٢ / ١٩ .

(٢٠) نهج البلاغة ج ٢ / ٢٧ .

وهذا القيد يظهر بعد نظره وفهمه لحقيقة المساواة الممكنة .

ودعا إلى تشجيع المحسن وعقاب المسيء قائلاً :
« ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء » (٢١) .
ولفت نظر جباة الضرائب الى الرفق بالأهلين وعدم بيع شيء ضروري - وهذا ما فعلته القوانين الحديثة إذ منعت الحجز على الملابس ومراتب الموظفين . وبالغ في الرفق الحكيم فقال : « فان شكوا ثقلاً أو علة وانقطع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يتقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه زخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم » (٢٢) وهذا بعد نظر حكيم وسياسة مالية محكمة تزيد وضوحاً في قوله : « وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب

(٢١) نهج البلاغة ج ٢ / ٩١ .

(٢٢) نهج البلاغة ج ٢ / ١٠٠ .

الحاجة والمسكنة وكلاً قد سمى الله سهمه» (٢٥) ثم فصل
بعد ذلك وظيفه كل فرقة .

وتمشياً مع قاعدته في تقسيم العمل واختصاص كل
بما يحسنه ردّ على من قال له : أنّك تأمرنا بالسير الى
القتال فلم لا تسير معنا ؟ انه لا يجوز أن يترك مهماته من
قضاء وإدارة وجباية ضرائب ، وكذلك نصح عمر بالألّا
يخرج للقاء الفرس بنفسه « لأنّ الأمير كالنظام من الخرز
يجمعه » (٢٦) ولأنّه ان خرج انتقض عليه العرب من
أطرافها .

ط - ان هذا الإمام المجرب ما كان ليغفل الدعوة الى
الاتعاظ بالتجارب في الحكم فها هو إذّاً يقول « ان الامور
اذا اشتبهت اعتُبر آخرها أولها » (٢٧) ويقول في مكان
آخر : « استدَلّ على ما لم يكن بما كان » ثم يقول أيضاً :

(٢٥) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٢ .

(٢٦) نهج البلاغة ج ١ / ٢٨٣ .

(٢٧) نهج البلاغة ج ٢ / ١٥٨ .

الخراج لأنّ ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج
بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد» (٢٣) . وإذا
تذكرنا ما جرّ التعسّف في جبي الضرائب في فرنسا
وولايات تركيا وغيرها عرفنا قيمة هذه النصيحة التي
يؤيدها المنطق ويسندها التاريخ .

ح - وقد أدّى بُعدُ نظر الإمام به الى أن يدعو الى
تقسيم العمل ذلك المبدأ الذي لم نعرفه الا حديثاً فقد قال
ناصحاً : « واجعل لكل إنسان من خَدَمك عملاً تأخذه
به فانه أحرى ألا يتواكلوا في خدمتك » (٢٤) وقال من
عهده الى الأشتر النخعي أيضاً : « واعلم ان الرعيّة
طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها إلا
من بعض . فمنها جنود الله ومنها كتّاب العامة والخاصة
ومنها قضاة العدل ومنها عمّال الإنصاف والرفق ومنها
أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومُسلمة الناس ومنها
التجّار وأهل الصناعات ومنها طبقة السفلى من ذوي

(٢٣) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٩ .

(٢٤) نهج البلاغة ج ٢ / ٥٩ .

« العقل حفظ التجارب »^(٢٨) ولست أحمل هذا القول الأخير أكثر مما يجتمل اذا قلت انه هو الرأي الفلسفي المعارض للرأي القائل بأن العقل يتفاوت عند الأشخاص بطبيعته . والذاهب على العكس الى أن العقل ليس الا عمل التجارب والتهديب . والدافع لحجة الرأي الأول القائلة بأننا لوربنا أشخاصاً ذوي أعمار واحدة تربية واحدة في بيئة واحدة لنشأوا رغم ذلك مختلفي العقليات ، بأنهم إنما يختلفون لسبق تأثرهم بمزاج وراثي مختلف .

ي - وتكلم الإمام في عهده الى الأستر عن القضاة كلاماً قال عنه الاستاذ العشماوي أستاذ القانون الدستوري بكلية حقوق القاهرة ان كلاماً غيره في أي دستور من دساتير العالم لم يفصل مهمة القضاة وطرق اختيارهم مثل ما فعل . قال الامام « ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحرص

(٢٨) نهج البلاغة / كلمات قصار.

في الفيء الى الحق إذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأذى فهم دون اقصاه ، أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم واصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند انضاح الحكم ، من لا يزدهيه إطراء ولا يستميله اغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس ، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك »^(٢٩) وهذا دستور حكيم بل هو أحكم ما نعرفه وحسبه انه انتبه الى وجوب اجزال العطاء المالي للقضاة ليستغنوا بذلك عن الارتشاء وانه شدّد في اعطائهم منزلة قريبة من الوالي ليقطع بذلك الطريق على الوشاة وليجعل القضاء في جوّ هادئ .

وفي غير هذه الرسالة ذمّ من يتصدّى للحكم وليس أهلاً له قائلاً « جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره فان نزلت به احدى المبهمات هيأ لها

(٢٩) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٧ .

حشواً من رأيه ثم قطع به ، جاهل خباط جهالات
عاش ركاب عَشَوَات تصرخ من جور قضائه الدماء
ونعج منه المواريث الى الله» (٣٠) وفي موضع آخر يقول :
« لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر وما
أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كِظّة ظالم ولا سَغَب
مظلوم لألقيتُ حبلها على غاربها» (٣١) ومعنى هذا ان على
الخواص مهمة هي عدم الصبر على الظلم بل مجاهدته ولو
لم يقع عليهم .

ك - وتكلم في سياسة الجند وأمر جيشه ألا يتتبع عند
الفوز فარاً ولا يهين امرأة وان سبته فإن النساء ضعيفات .
وهذا دليل الخصومة الشريفة ونبل الخلق . وقال في عهده
إلى الأشر « وليكن أثر رؤوس جنك عندك من واساهم
في معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من
وراءهم من خلف أهليهم حتى يكون همهم همّاً واحداً
في جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم

(٣٠) نهج البلاغة ج ١ / ٥٩ .

(٣١) نهج البلاغة ج ١ / ٤١ .

عليك ، وان أفضل قرة عين الولاية استقامة العدل في
البلاد وظهور مودة الرعية . وانه لا تظهر مودتهم الا
بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على
ولاية أمورهم وقلة استئثار دولهم وترك استبطاء انقطاع
مدتهم فافسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم
وتعديد ما أبلي ذوو البلاء منهم ، فان كثرة الذكر لحسن
أفعالهم ، تهمز الشجاع وتُحَرِّض الناكل ان شاء الله ثم
اعرف لكل امرىء منهم ما أبلي ولا تُضيفن بلاء امرىء
الى غيره . ولا تقصرن به دون غاية بلائه ، ولا
يدعونك شرف امرىء الى أن تعظم من بلائه ما كان
صغيراً ولا ضعة امرىء الى أن تستصغر من بلائه ما كان
عظيماً» (٣٢) .

والآن وقد سرنا في نهج البلاغة شوطاً يغيرنا
بالاستزادة فلنتقف ، وإذا كان أمير المؤمنين عليّ (عليه
السلام) قد نهى قومه عن أن يمدحوه فلا يخافن اليوم
اغتراراً وهو بعيد عن حياة الغرور ، إن نحن انحنينا أمام

(٣٢) نهج البلاغة ج ٢ / ٩٥

عبقريته . لقد جانا نهج البلاغة فأحسن بما جانا ،
فلنطبق عليه قوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » (٣٣) .

الفهرست

٥ المدخل
٦ نسبه ومولده
٨ العودة الى الشام
٩ حياته العلمية
١٠ مؤلفاته المفقودة
١٤ هذا البحث
١٥ المقدمة
٢٥ التعايش السلمي
٤٣ الحكم .. السياسة .. القضاء
٤٧ الديمقراطية

(٣٣) نهج البلاغة ج ٢ / ١٥٩ .